ما ينشر في هذه الصفحة لايعبر بالضرورة عن رأي الصحيفة

المنطقة إلى أين... تنافس أم صراع؟

ناصر قنديل

– لا يُطرح هذا السؤال مع بدايات الربيع العربي الذي بدا مبشراً بدعوة للتغيير والثورة قبل أن يتّضح كمبشّر بالفوضى والغموض الداكن يلفّ مصير الكيانات الوطنية التي تولّدت بعد الحربين العالميتين، ويأخذها عكس حلم الوحدة، نحو تفتيت المفتّت وتقسيم المقسّم وإدخالها في حروب أهلية بعد تدمير الجيوش الوطنية التي غالباً ما كانت رموزاً لقمع الدولة المركزية، وسرعان ما صارت رمزاً للهوية الوطنية المهدّدة بالزوال لحساب هويات أتنية وعرقية وطائفية وقبلية ومذهبية، هويات متناحرة متورطة بانفعال غرائزي قاتل في حروب حتى الموت، حتى صارت حماية بقاء الكيانات التي ولّدتها «سايكس بيكو» كمشروع تفتيت مطلباً وطنياً يستحق التضحيات الجسام، كما صار الحفاظ على الجيوش قضية حفاظ على عمود فقري لدولة تتداعى مهدّدة بالاندثار. ولا يطرح السؤال أيضاً بعد حروب الإمبراطورية الأميركية لإنشاء نظام عالمي جديد تأسيساً على انهيار النظام الذي عبّرت عنه قواعد الاشتباك بعد الحرب العالمية الثانية وما عُرف بالحرب الباردة، وما صار معروضاً على الشعوب في منطقتنا، خصوصاً من خيارات أحلاها مرّ، الوقوف بوجه حروب ما بعد سقوط جدار برلين دفاعاً عن أنظمة أذاقت شعوبها الأمرّين، أو الوقوف في صف حرب استتباع لا مكان فيها لحياة وحرية واستقلال وهوية. والمشروع الإمبراطوري يحمل فلسفته للعالم الجديد ويبشّر على لسان فرانسيس فوكوياما بإحدى ثنائيته، نهاية التاريخ وسقوط الهويات، وما تعنيه العولمة التوحشية الأحادية أو صدام الحضارات وفقاً لصموئيل هنتغتون، صداماً تُسحَق فيه الشعوب والأمم التي تتمسّك بخصوصية وهوية، ولا يكون مصيرها أفضل من مصير الهنود الحمر، كسكان أصليين للبلاد، كل البلاد، وأي بلاد، يتمسكون بنمط عيش وثقافة وسلوك، لا تنسجم مع الهوية الجامعة الموحّدة والمعروضة للاستنساخ على البشرية في زمن نهاية التاريخ.

– يُطرح السؤال وقد دار الزمان دورة كافية لتبرير طرحه، فالمشروع الامبراطوري الأميركي يتهاوى والسؤال صار مشروعاً: أميركا إلى أين، والربيع العربي نتجاً،تاستولد حمله الشرعي بمولود مشوّه هو داعش، كثمرة تراكمية للفوضى العارمة التي دخلتها المنطقة أو أدخلت إليها، ليصير السؤال الطبيعي المنطقة إلى أين، بعد فشل المشروع الإمبراطوري الأميركي وفشل الربيع العربي والانتصار المنتظر على داعش. والسؤال يبدأ من تحديد قدرتنا على وعي الذي تغيّر فينا، وهل هو كافٍ لنجيب عن السؤال برؤيا تستشرف ولا تعيد إنتاج وعي الذات المريضة بعيون مريضة، لتنتج باسم الانتصار على حروب الآخرين، حروبنا نحن، بدلاً من سلامنا وعمراننا، وتنميتنا، وبالأصل دولنا، ومجتمعاتنا؟

– عندما حاول توماس فريدمان في كتابه سيارة اللكزس وشجرة الزيتون، أن يصيغ مفهوم العولمة الذي تحمله الحروب الأميركية، في تطوير لما بدأه في افتتاحيات نيويورك تايمز ترويجاً لهذه الحروب في عهد الرئيس الأميركي بيل كلينتون وكانت ساحتها أوروبا قبل أن يحين دور آسيا مع جورج بوش، اعتبر أن شجرة الزيتون ترمز للهوية والخصوصية، وسيارة اللكزس ترمز للرفاه، مستنتجاً بحصيلة كتابه أن لا مكان في العالم الجديد للهويات الخاصة بل للحاق بركب الرفاه، مطلقاً شعار اقتلعوا أشجار زيتونكم بأنفسكم والتحقوا بركب الركض وراء اللكزس قبل أن تقتلع اللكزس أشجاركم، فزيتونكم لا مكان له في عالم الغد في الحالتين، لتتكشف الحروب الأميركية ومن بعدها ربيعها العربي أو حربها الذكية، وختامها ولادة داعش، ثلاث حقائق خطيرة: أولها أن سيارة اللكزس كانت تشتغل لحساب شجرة

زيتون بعينها يُراد اقتلاع أشجار الغير لحسابها، وفي منطقتنا الشجرة الوحيدة المسموح ببقائها هي الشجرة «الإسرائيلية»، فليست مصادفة أن يتزامن صعود المشروع الإمبراطوري الأميركي المعولم مع إشهار «إسرائيل» نيتها تطوير هوية مشروعها لمزيد من الفظاظة في الإمعان بالهوية الخصوصية المستفزة والمغايرة لوصفات فريدمان وتطلق مشروعها كدولة يهودية. والحقيقة الثانية أن السعي لتدمير أشجار زيتوننا الوطنية كان لحساب أشجار زيتونا الأخرى التي لا تنتج ثمراً، وهي هوياتنا القاتلة والمتقاتلة، التي حظيت عشائر وقبائل وطوائف ومذاهب بكل الرعاية اللازمة للنمو على حساب الدولة الوطنية لتمتلك كل منها أحزاباً وجيوشاً وأعلاماً ودويلات. والحقيقة الثالثة هي أن داعش كمولود شرعي تراكمي لفشل المشروعين الإمبراطوري العسكري والاستخباري التثويري، الصيف والربيع، استمد قوته من نموذج مشوّه لهوية غارقة في التاريخ حتى الاختناق في الشكل والمضمون، لكن الحقيقة المفاجئة هي أن النهاية بدأت في بلد المنشأ للعولمة المتوحشة بالعودة للهوية الخاصة الفجة والعنصرية، لكن المستندة إلى شجرة زيتونها، في نموذج تفرزه تباعاً تشكيلات الخطاب السياسي الصاعد في الغرب من أميركا دونالد ترامب إلى بريطانيا الخارجة من الاتحاد الأوروبي وصولاً لـ«فرنسا الآتية»، كما يصفها فرانسوا فيون المرشح الرئاسي الأوفر حظاً، أكثر فرنسية أقل أوروبية، وأقل وأقل عالمية.

– مع معادلة صراع الهويات يصير الخطر سقوط السعي للرفاه والتمدن والحداثة حاضراً، ويصير التوازن بين صياغة الهوية القادرة على ملاقاة التحديات ومواءمة حقائق التاريخ والجغرافيا في آن واحد بصورة غير مفتعلة، هو السياسة. وتصير الحروب الصغيرة داخل حدود الدول إمعاناً في تفتيتها وتشتيتها، أو بين الدول تضييعاً لمواردها واستنهاضاً لعصبياتها، التعبير الأوضح عن اللاسياسة. ولأنه يستحيل بعد كل الذي جرى الحديث عن لعبة شطرنج ودية، يُعاد بنتيجتها رصف الحجارة، كما في الشوط الأول، بينما في الحرب يُخاض الشوط الثاني، من حيث انتهى الشوط الأول لا تكرار بالبدء كما بدأ، وجب القول إن ثمة مشروعاً هُزم، وقوى انتصرت، لكن ليس ثمة بعد مشروع ينتصر. والواضح من مقاربة المشهد الدولي الإقليمي أن الذين وقفوا في خندق الحروب الأميركية وضعوا أنفسهم في صف الخاسرين، وبالمقابل فإنهم اليوم أعجز من إنتاج مشروع، ومشروعهم قد سقط، لأن الأميركي وهو عمود خيمتهم يرتدّ إلى داخل الحدود لإعادة صياغة ذاته، بينما بالمقابل تستطيع الدول التي ناوأت وقاومت المشروع الأميركي أن تباهي بوقوفها في ضفة النصر، لكنها لا تستطيع ادعاء امتلاك مشروع، على أهمية امتلاكها مفردة ذهبية تؤسس أحد أركان المشروع المنشود وهي مفردة المقاومة، لكنها مفردة للإقليم وصراعاته وهوياته، لكنها ليست مفردة كافية لتوصيف مشروع الهوية الوطنية ومشروع الدولة الوطنية، ولا أشكال التحالفات والمصالحات التي تشكل السياسة بعينها في صياغة بنود المشروع.

– المنطقة بين التنافس والصراع وقفٌ على اثنتين، الأولى: هل يذهب الذين هزموا إلى الانتحار، ويخوضون مغامرة ومخاطرة تصعيد نموذج داعش وضخ المزيد من الجغرافيا والمقدرات في حسابه ما يمنحه أسباب قوة جديدة من عيار سيطرته على بيئة ثقافية وفكرية تنسجم مع مشروعه وثروات النفط الأهم في المنطقة من ليبيا إلى الخليج، أم يمتلكون شجاعة الخروج من الحرب بتحديد الخسائر والذهاب بعقل سياسي بمعنى السياسة العلمي نحو الانخراط في التسويات الإقليمية، التي في قلبها تدور المنافسة. أما الثانية والأهم فهي هل يمتلك الذي انتصروا وراكموا فائض قوة تواضع الانتصار، فينجحوا بتحويل فائض القوة إلى قيمة مضافة، والقيمة المضافة الأهم هي التسويات الوطنية، ليتحول النصر من نصر قوى بعينها إلى انتصار لمشروع يملك رؤيا بناء الدولة الوطنية؟

– ما يجري حتى الآن في لبنان وطنياً، وما تذهب إليه معادلة الحرب في سورية إقليمياً ودولياً يشجّعان على الحديث عن ترجيح كفة التنافس على الصراع، خصوصاً في ظل شح الموارد التي يقع الجميع تحت أثقالها، وقد أكل ما مضى من الحروب أخضر بلادنا واليابس في البشر والحجر، لكن تبقى الكلمة الفصل لما سيفعله العراق، وطنياً وإقليمياً، وهل يملك اللاعبون الرئيسيون فيه قدرة رفع سقوفهم الإقليمية نحو التكامل مع سورية الذي ينشئ وحده قطباً جاذباً لمشروع نهضة، وتخفيض سقوفهم الوطنية، نحو صياغة تسويات شجاعة تستعيد الواقعين تحت قلق التهميش إلى السياسة، وتبتكر حلولاً لمشاريع الانقسام والانفصال والتقسيم بتوصيف للعراق الموحّد، يبتعد عن تلازمه مع قواعد صراع الهويات البينية بين رابح وخاسر فيها، فيصير عائد التنازل للتوافق الوطني أكبر من عائد الانقسام الافتراضي أو حلم أو وهم الانفصال؟

السعودية تبتزّ لبنان: الصمت مقابل ٤٠٠ مليون دولار

لا يبدو أن الزيارة الرئاسية الأولى للعهد الجديد إلى السعودية قد بدّلت من تعامل المملكة مع لبنان. فقد علمت «الأخبار» أن السعوديين ربطوا دفع مبلغ ٤٠٠ مليون دولار، من أصل هبة المليارات الثلاثة للجيش، بشرط وقف ما يسمّونه الحملات الإعلامية ضد المملكة

لم يكن كلام وزير الداخلية والبلديات نهاد المشنوق، عن ثمنٍ سياسي مطلوب دفعه للمملكة العربية السعودية مقابل عودة الهبة السعودية المالية للجيش اللبناني، سوى تعبير عمّا يدور في عقل القائمين على القرار في المملكة تجاه لبنان، الذي تغيّر عمّا كانت عليه الحال في مرحلة ما بعد اغتيال الرئيس رفيق الحريري، وقبض فريق ١٤ آذار سابقاً على مقاليد الحكم فيه.

وبحسب معلومات «الأخبار»، فإن المسؤولين السعوديّين فتحوا بازاراً لابتزاز الدولة اللبنانية والجيش، تحت عنوان استكمال دفع جزء من الهبة المالية، مقابل وقف «حملات الشتائم» وانتقاد المملكة. ويتضمّن الطرح السعودي دفع ٤٠٠ مليون دولار للفرنسيين، بعدما سددوا سابقاً مبلغ ٦٠٠ مليون دولار، كدفعة أولى من ثمن الأسلحة التي كان السعوديون سيشترونها من فرنسا لحساب الجيش اللبناني. وبذلك يكون العرض السعودي (غير المحقّق بعد) قد خفض الهبة من ثلاثة مليارات دولار إلى مليار دولار فقط.

وقالت مصادر وزارية لـ «الأخبار» إن المسؤولين السعوديين طلبوا ترك هذا العرض سرّياً، ربطاً بسياسة التقشف السارية في السعودية، وعدم رغبتهم في استثارة ردود فعل غاضبة على دفع أموال خارج المملكة. ويربط السعوديون دفع الـ٤٠٠ مليون دولار بوقف «الحملات الإعلامية ضدّ المملكة» في لبنان، مع أن لهجة وسائل الإعلام اللبنانية خفتت تجاه السعودية في الشهرين الأخيرين، علماً بأن حزب اللّه وأمينه العام السيّد حسن نصرالله لم يرفعا السقف بالهجوم الإعلامي على السعودية إلّا بعد أن بدأت السعودية عدوانها على اليمن، ثم وضعت الحزب على لائحة الإرهاب، فضلاً عن المعطيات التي توافرت لدى أكثر من جهاز أمني لبناني عن ارتباط ما لبعض الخلايا الإرهابية، التي نفّذت تفجيرات ضد أهداف في الضاحية الجنوبية، بالاستخبارات السعودية. وإذا كانت السعودية تريد تقديم هبة مشروطة للبنانيين بوقف الحملات الإعلامية، فإن الأجدر بها أن تعتذر عن علاقتها بالجرائم الإرهابية ضد اللبنانيين، أو على الأقل توضّح أنها لم تقم بمحاولات لزعزعة الأمن اللبناني لأهداف سياسية، كما تفعل في سوريا والبحرين، وكما تستمر بعدوانها ضد الشعب اليمني.

من جهتها، اكتفت مصادر وزارية في فريق رئيس الحكومة سعد الحريري بالقول إن «مسألة الهبة تتابع بين الوزراء المعنيين في البلدين»، مؤكدة أن «السعودية لن تدفع مساعدات مالية لدولة تُشتَم فيها».

وفي السياق ذاته، بدا الرئيس أمين الجميّل متماهياً مع الابتزاز السعودي، وقال في مقابلة مع تلفزيون روسيا اليوم إن «على الرئيس ميشال عون العمل مع إيران وحزب اللّه على وقف الحملات على المملكة، وتثبيت الوفاق في علاقات لبنان مع جيرانه».

ولليوم الثالث على التوالي، استمر التراشق الإعلامي بين الوزير السابق أشرف ريفي والوزير نهاد المشنوق، لكنّ البارز هو دخول الحريري على خطّ الدفاع عن المشنوق، بردّه على كلام ريفي. وفي حين ذكّر ريفي، ردّاً على كلام المشنوق، بكلام الحريري أمام لجنة التحقيق الدولية حول شكوكه في المشنوق، غرّد الحريري ليلاً، قائلاً: «كم كنت مخطئاً عندما شككت بنهاد المشنوق، وأعطيت كامل ثقتي لبعضهم».

بدوره، استمر النائب وليد جنبلاط في معزوفة التحذير من مكبّ الكوستابرافا، مغرّداً بأن «محاولة التخفيف من خطر المكب لهو بدعة وتحايل على الرأي العام. وعندما تقع الكارثة لا نفع للندم». وتناسى جنبلاط أن المكبّ لم يكن ليصبح أمراً واقعاً لولا قبوله بهذا «الحلّ»، وضغطه على النائب طلال أرسلان للقبول به، وضغوطه على فعاليات الشويفات وأهاليها، ومنعهم من التظاهر وقطع الطريق، يوم كان وقف العمل بالمطمر متاحاً، ويوم لم تكن الكارثة قد وقعت بعد، من دون أن يبدي ندماً على موقفه السابق، وموقف رئيس اللجنة المكلّفة بمعالجة ملف النفايات وقتها، الوزير أكرم شهيّب، الذي لم يترك منبراً إلّا اعتلاه للتسويق للمكب.

إيران حزب الله..ذريعة لتشريعٌ لكل الجرائم

إيهاب زكي

يكفي لتمرير أي جريمة يرتكبها النفط عمومًا وآل سعود خصوصًا، أن تقحم إسم إيران أو حزب اللّه، لتصبح عملًا مشروعًا بل تمسي البطولة عينها، من سوريا إلى العراق وصولًا إلى اليمن، ففي سوريا مثلًا وحين تستمع لأدعياء الثورية، يُخيل إليك أنهم "ثاروا" على إيران وحزب اللّه لا على دولتهم، وكذلك في العراق حين

تستمع لأدعياء المظلومية المذهبية، تظنهم يعيشون في طهران وهي من تمارس اضطهادهم، وأما حين تستمع للرئيس الفار عبد ربه هادي منصور وهو يتحدث عن إيران، تقطع جازمًا بأن إيران حرمته من حقه الدستوري، بأن يصبح رئيسًا لمجمع تشخيص مصلحة النظام، أو أن حزب اللّه حرمه من الترشح لأمانته العامة. فكل تلك الجرائم المرتكبة على مدار الساعة، يتم تسويقها جماهيريًا تحت لافتات مذهبية لا تمت لواقع الصراع بصلة، إنما هي الغريزة التي جعلت من تلك الجماهير مطية لكل المشاريع الصهيونية، ويقال أن الشعوب متدينة بالفطرة، ولكن الدين الفطري الذي يجعلك تصطف في خنادق "إسرائيل" ليس دين فطرة، إلا إذا كنت مفطورًا على اليهودية.

كانت القضية الفلسطينية هي أكثر القضايا تحقيقًا للزخم الجماهيري، وكانت الأنظمة والحركات والتنظيمات التي تتبناها تحقق غالب التأييد في الشارع العربي، لذلك وبحكم تعارض وجودها مع تحرير فلسطين، كانت أنظمة النفط تتسول الشعبية عبر الرشاوى "الخيرية"، ورغم ذلك كانت في أدنى سلم الشعبية، لأن المقياس في العقل الجماهيري كان مدى القرب من القضية الفلسطينية، وتلك العروش كانت ومازالت وستظل أبعد ما يكون عن بوصلة الأمة. ولكن منذ اندلاع حرائق ما يسمى بـ"الربيع العربي"، بدأت البوصلة بالانحراف عن سبق إصرار أمريكي صهيوني وترصد نفطي، فأصبحت إيران هي العدو، وهي عدو أخطر من "إسرائيل"، حيث أن إيران تشكل خطرًا على دين الجماهير، بينما "إسرائيل" لا تشكل إلا خطرًا جغرافيًا عابرًا، لذلك فإن القضاء على الخطر الإيراني هو انتصار لدين الجماهير الذي يظنونه دين اللّه، ولو بالتحالف مع العدو الأقل خطرًا "إسرائيل"، وهذا ما يجعل العلاقات التركية –"الإسرائيلية" في دائرة الضرورة، طالما تحمل تركيا راية الدفاع عن المذهب-الذي هو الإسلام من وجهة نظر حامليه-، وهو حتى بالقياس ليس مذهبًا إنما لوائح داخلية لتنظيم، كما هي العلاقات السعودية والقطرية والبحرينية والإماراتية-"الإسرائيلية" على نفس القاعدة.

هنا أصبحت السعودية والممالك النفطية قادرة على تصدر مشهد الدفاع عن الأمة، وحيازة الزخم الجماهيري بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، فهناك مثلًا من اللادينيين الذين يخصصون الحديث عن خطر التمدد الشيعي، رغم أنه من المفترض أن أمثال هؤلاء يعانون من فوبيا الدين عمومًا، ولا تعنيهم الاستثناءات أو الفروقات المذهبية، وديمقراطيون يطالعونك بمثالب "حكم الملالي" في طهران، ولكن ديمقراطيتهم تصبح صماء بكماء عمياء إن وجدت طريقها لأصغر قصر أميري أو ملكي. وأسوأ هؤلاء على الإطلاق، هم أولئك الذين وضعوا شرطًا مسبقًا لتقديم آيات الاحترام والتبجيل لأنظمة النفط ونظام آل سعود خصوصًا، وهو أن يقوموا بمحاربة إيران وأذرعها بلا هوادة، ودون الأخذ بالاعتبار أي مصلحة سياسية، وهؤلاء بحق ينطبق عليهم المثل "يقتلونك فهمًا". ولو اخذنا مثالًا العملية البطولية للشهيد فادي القنبر الذي قام بدهس جنود نخبة العدو، وافترضنا أنه قال يومًا ما يُستشف منه تاييدًا لإيران أو حزب اللّه أو الدولة في سوريا، فلن تشفع له بطولاته ولا صواب بوصلته لدى العقل الجماهيري المشبع بالنفط والمذهبية، سيسلقونه بألسنة شداد حداد، ويضعونه على شفيرٍ من نار جهنم، وقد يتفضل أكثر آلهة الأرض رحمة-رجال الدين وجماهيرهم- بدعوة إله السماء بأن يغفر له ضلالته، بينما لو تزنر بالأحزمة الناسفة وتفجر في سوق أومدرسة أو حتى مسجد، سيكون شهيدًا مع المقربين والصديقيين.

ولكن هناك فئة تجعل من مجرد الحديث عنها أمرًا مريرًا وفي غاية التعقيد، تلك الفئة هي التي تؤيد المقاومة في فلسطين، وتطلق التهاني والتبريكات بالعمليات الفدائية والبطولية، وتتعامل مع كيان العدو باعتباره عدوًا أوحدًا، ولكنها في ذات الوقت لا تترك مصلحة صهيونية إلا وانخرطت لتحقيقها، وكأنها مصالح وطنية وإنسانية عليا، فهي تدعم ما يسمى بـ"الثورة السورية"، رغم أنها تحقق مصالح صهيونية استراتيجية، وتجاهر بدعم داعش في العراق وإن تحت مسميات ورايات مختلفة، كما تجاهر بتأييد العدوان السعودي على اليمن، كما تؤيد كل الإجراءات التركية تجاه المنطقة وشعوبها بما فيها إعادة العلاقات مع كيان الاحتلال.

قد يتبادر إلى الذهن أن هذه الفئة هي تنظيم بعينه أو جماعة بعينها، وهذا شيء من الحقيقة، ولكن الحقيقة الكاملة أنها تيار وليس تنظيم، ونحتاج إلى كمٍ وكيفٍ هائل من الجهد والوقت لإعادة إرساء مفاهيم فنون الاصطفاف وفن العِداء، فنحن بحاجةٍ إلى نسف الصراط المستقيم الذي عكف النفط منذ أربعين عامًا على بنائه، وإعادة بنائه مجددًا، حيث أن أجيالًا برمتها وبعد أن أنهكها السير فوق الصراط المستقيم، وجدت أنه ينتهي إلى نعال أمراء النفط والغاز، فبئس الجهد وبئس الصراط.